المحاضرة الخامسة

قضية الإنتحال وتأصيل الشعر :

تعتبر قضية الإنتحال من القضايا النقدية الكبرى التي شغلت النقاد القدامى والمحدثين، وقد تطرق إليها معظمهم ، ولكن أول ناقد كتب في مسألة نحل الشعر هو ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء ، وعلى الرغم من أن بعض معاصريه قد فطنوا إلى فكرة الشعر المصنوع الذي ينسب إلى الجاهلين والإسلاميين وليس لهما، ومن هؤلاء خلف الأحمر والمفضل الضبي ، إلا أن ابن سلام كان أشد اهتماما بها وتوسع في شرح جوانب النظرية وجميع ملابساتها التاريخية .

الإنتحال ظاهرة عرفتها جل آداب الشعوب العربية و اليونانية والرومانية ، وذلك أثناء طغيان المشافهة والرواية الشفهية ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في قوله : فلن تكون " الأمة العربية أول أمة نحل فيها الشعر نحلا وحمل على قدمائها كذبا وزورا ، وإنما نحل الشعر في الأمة اليونانية والأمة الرومانية من قبل وحمل القدماء من شعرائهما " .

مافما هو رأي النقاد القدامى في قضية الإنتحال وتأصيل الشعر؟ قبل الخوض في الإجابة عن هذا السؤال ، ينبغي تقديم تعريف للانتحال .

مفهوم الإنتحال :

الإنتحال لغة: من نحل الشيء ، إذا أعطاه أو وهبه أو خص أحدا بشيء ما ، وانتحل الشيء: إذا ادعاه لنفسه وهو لغيره، وانتحل الشعر أو القول ونحوه : ادعاه ونسبه لنفسه ، وفي الحقيقة ليس له نحل ، والنحل : نسبة شعر شاعر إلى شاعر آخر غيره لم يقله .

وجاء في لسان العرب أن النحل (بالضم) أي : إعطاؤك الإنسان شيئا بلا استعاضة ، وعم به بعضهم جميع أنواع العطاء ، وقيل : هو الشيء المعطى ، وقد أنحله مالا ، ونحله إياه.

وفي "المقاييس" ، ورد ان الاسم النحل : (بضم النون والحاء)أن تعطي شيئا بلا استعواض، ونحلته الشيء : أي أعطيته إياه ، وانتحل الشيء : إذا تعاطاه وادعاه ، وقال قوم : انتحله : اذا ادعاه محقا ، وتنحله : إذا ادعاه مبطلا .

وقد تناول كثير من النقاد العرب القدامى قضية الإنتحال في مؤلفاتهم ، ويأتي في مقدمتهم ابن سلام الجمحي ، والذي توقف عند هذه القضية النقدية من خلال كتابه " طبقات فحول الشعراء " .

أولا – ابن سلام الجمحي وقضية الإنتحال :

لقد تعرض ابن سلام في مقدمة كتابه إلى قضية الوضع أوصحة الشعر وصحة الرواية، فأدرك أن الشعر العربي القديم المتداول على ألسنة الرواة والمدون في كتب الأخبار و الأنساب ، أغلبه موضوع من قبل الرواة على لسان الشعراء ، لذلك قرر وضعه في موضع الشك ، لأنه لم يؤخذ عن أهل البادية بالمشافهة.

وعندما تتبع ابن سلام قضية الإنتحال في الشعر وجد أنه يعود إلى عوامل ثلاثة يمكن أن نبينها فيما يلي:

1- العامل السياسي : (العصبية القبلية) :

كان الشاعر في الجاهلية لسان قبيلته يدافع عنها وينتصر لها ، وكان الهجاء سلاحا فتاكا يتهدد به الشاعر الخصوم، إلا أن الشعر لم يسجل ، بل تناقله الرواة بين القبائل.

فلما جاء الإسلام ألف بين القلوب ، وأصبح الشاعر يدافع عن دينه الجديد ويواجه الكفار، فأصبح شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتفاخرون ، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء الخلفاء وكثرت الفتوحات ، وانصرف الناس إلى الجهاد في سبيل الله ، وكان عمر رضي الله عنه قد نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي

صلى الله عليه وسلم ، وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ظهرت العصبية من جديد في بني أمية ، فأخذ شعراء الأنصار يفخرون بنصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ورد عليهم شعراء قريش.

و كانت القبائل العربية تحرص على أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعا ، فأخذت تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية فلم تجد أكثرها لأن العرب لم تكن تسجل أشعارها لاعتمادها على الرواة ، وكان أكثر الرواة قد ماتوا في حروب الردة والفتوحات ، فما كان من هذه القبائل إلا أن تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية فلم تجد أكثرها . وفي هذا يقول ابن سلام : " ... فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم".

وقد سجل ابن سلام ملاحظة هامة هي أن قريشا كانت أكثر القبائل التي نحلت الشعر لأنها كانت أقلهم شعرا في الجاهلية ، وفي هذا يقول: "وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثرت منه في الإسلام" ، وهكذا فقد كان للعامل السياسي المتمثل في العصبية القبلية دور في نحل الشعر ما جعل العرب ينحلون شعر الجاهليين .

2- **العامل الديني:**

لقد كان للعامل الديني كبير الأثر في نحل الشعر وإضافته للجاهليين ، ويذكر ابن سلام أن القصاص وأصحاب السير عندما حاولوا تفسير ما وجدوه مكتوبا في القرآن الكريم من أخبار الأمم البائدة كعاد وثمود ، قد أضافوا شعرا إلى تبع وحمير وهذا شعر منحول ، وقد وجه ابن سلام أصابع الاتهام إلى ابن إسحاق وغيره من أصحاب السير والقصص. و" لقد تصدى ابن سلام بالنقد لما وضعه محمد بن إسحاق صاحب السيرة ، من شعر مفتعل نسبه إلى من لم يقولوا الشعر" .

وقد أثبت نقده هذا في كتابه الطبقات: " إذ يقولوكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل الناس منه كل غثاء محمد ابن إسحاق... وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس منه الأشعار ...ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعارا لنساء لم يقلن الشعر قط ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ، والله يقول: **{وأنَّه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى}** ، وقال في عاد **{فهل ترى لهم من باقية}** .

هذا ويرد ابن سلام على ابن إسحاق ويسقط ما ورد في سيرته بأربعة أدلة :

أ – الدليل النقلي : وهو ما جاء في القرآن في الآيتين السابقتين ، فيا ترى من حمل ذلك الشعر إلى عصر التدوين الله قد أهلك عادا وثمود؟

ب– الدليل تاريخي :أن اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد وثمود ، فكيف يظهر شعر بلغة لم تظهر بعد. فأول من تكلم العربية إسماعيل عليه السلام ، وإسماعيل جاء بعد عاد.

ج – ويذكر ابن سلام أن عادا من اليمن وأن لليمن لسانا غير هذا اللسان العربي .

د – يذكر ابن سلام أن القصائد الطوال ظهرت في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع .

3– **عامل الرواة** :

فطن ابن سلام إلى ما أصاب رواية الشعر الجاهلي من كثرة التزيد فيه والإنتحال ، ولكن قد يسهل على أهل العلم معرفته ، أما الشعر الذي وضعه أهل البادية من أولاد الشعراء أو غير أولادهم فهو الذي يقع موضع الشك والإشكال.

يقول ابن سلام:" وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال" .

وبالنظر إلى ما أوقعه الرواة من فساد وخلط في الشعر العربي ، فقد شن ابن سلام هجوما على هؤلاء الرواة ومنهم حماد الرواية رائد أهل الكوفة في الرواية والحفظ ، وخلف الأحمر وكان زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ ، فهما كانا يحسنان رواية الشعر ويحفظانه، وقد وصلا إلى تقليد الشعراء بحيث لا يستطيع أحد التمييز بين الرواية والنحل .

فحماد يحدثنا عنه راوية من خيرة رواة الكوفة هو المفضل الضبي الذي قال عنه بأنه " أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعد أبدا ، فلما سئل عن سبب ذلك ألحن أم خطأ ؟ قال " ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الأفاق، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟" ، ويحدث ابن سلام كذلك فيقول:" وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار".

ولكن ابن سلام يضيف فئة أخرى من المنتحلين ،هي فئة أبناء الشعراء الذين كانوا ينحلون أشعار أبائهم الشعراء، وذكر مثالا على ذلك أن: " أبا عبيدة استنشد داوود بن تميم بن نويرة شعر أبيه فلاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد أشعارا لم تعرف له" .

هذه هي مجمل الأسباب التي أدت إلى الإنتحال في الشعر كما رأى ابن سلام ، وقد سجلها في كتابه طبقات فحول الشعراء ، إلا أنه يقر بصعوبة التمييز بين الصحيح والمنحول وبخاصة عندما يصدر الشعر من أهل البادية العارفين بالشعر وروايته ، إلا أن ابن سلام

اعتمد على رأي علماء عصره ومن سبقوه ، وعلى منهجه وثقافته في كشف المنحول ، وتلك محمدة تحسب له .

ثانيا – الجاحظ وقضية الإنتحال :

تناول الجاحظ هذه القضية وحاول أن يتمم ما بدأه ابن سلام في التمييز بين الشعر الصحيح والمنحول ، فاعتمد في ذلك على شهادة الرواة وعلى مبدأ تفاوت الشعر ، فيروي بيتا منسوبا لأوس بن حجر:

فانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

ويقول معلقا عليه :" وهذا الشعر ليس لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح بن أوس" ، وقد تفطن الجاحظ إلى برهان آخر زيادة على ما وضعه ابن سلام يمكن أن يميز به الشعر الأصيل من المنتحل ، وهو المعنى الداخلي للشعر الذي يؤديه الشعر ، وقد أورد مثالا على ذلك من قول الأفوه الوردي:

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

قال:" وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم وهو جاهلي ، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون " .

ويتضح من هذا أن الجاحظ حلل البيت داخليا واستنتج أن الشهب وهي رجم الشياطين جاء ذكرها في القرآن فأين لهذا الجاهلي أن يعرف شيئا كهذا، ثم يكون الجاحظ في بعض الأحيان جادا في نقده إلا أن هذا النقد لا يخلو من السخرية ، فمن ذلك تعليقه على بيتين في قول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى إنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت وّ لكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

ويعلق الجاحظ بقوله :"وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل في (الحكم) بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا" .

كما يروي الجاحظ أن هناك أناسا كانوا يبهرجون أشعارا ويستسقطون من رواها لينسبوها إلى غيرهم ، يقول : "وقد رأينا أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في رواية الشعر غير بصير بجوهرما يروي ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان ومكان .

مما تقدم ذكره ، نستنتج أن الجاحظ قد أكمل المنهج النقدي الذي كان قد بدأه ابن سلام في إرساء الأدلة التي يمكن التمييز بها بين الشعر الأصيل والمنتحل ، وقد أضاف الجاحظ دليلا آخروهو ما يسمى بالدليل الداخلي الذي يكمن في النص الشعري ، فيعمد إلى موازنة معنى البيت وبين ما كان متداولا في الجاهلية من ألفاظ ومعاني ، وبعدها يصدر حكمه على الشعر إن كان منحولا أو أصيلا .

ثالثا-الآمدي وقضية الإنتحال :

ونصل إلى القرن الرابع حيث يطالعنا الآمدي بحديثه عن الإنتحال ، فهو يتحقق من النصوص ونسبتها حيث يرجع إلى النسخ القديمة ويحقق أبيات الشعر.

ففي حديثه عن شعر أبي تمام يذكر أنه اطلع على النسخ العتيقة التي لم يطلع عليها غيره ، يقول: " حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد الصولي وأضرابه " ، كما يملك الآمدي روح الناقد الخبير فكان نقده علميا " ينظر في صحة نسبة الشعر، وهو في ذلك تلميذ لابن سلام ، ومن ثم نراه لا يقبل ما ينسب إلى الأعراب انتحالا " .

وفي الموازنة مثال دال على هذا حيث يتحدث الآمدي بمناسبة أبيات يدرسها عن التقسيم فيقول: " كان بعض شيوخ الأدب تعجبه التقسيمات في الشعر، وكان مما يعجبه قول العباس بن الأحنف :

وصالكم هجر وحبكم قلى وعطفكم صد وسلمكم حرب

ويقول: هذا أحسن من تقسيمات إقليدس ، وقال أبو العباس ثعلب : سمعت سيد العلماء يستحسنه يعني ابن الأعرابي ، ونحو هذا ما أنشده المبرد لأعرابي وليس هو عندي من كلام الأعراب وهو بكلام المولدين أشبه :

وأدنـو فتقصينـي وأبعد طالبا رضاها فتعند التباعد من ذنبي

وشكواي تؤذيها وصبري يسوؤها وتجزع من بعدي وتنفر من قربي "

وهكذا ، يبدو أن الآمدي قد واصل هو الآخر مسيرة ابن سلام النقدية، والتي أكملها بعده الجاحظ ، وتتمثل في تحقيق النصوص الشعرية ، ونسبتها لقائليها باتباع منهج نقدي ينزع إلى العلمية.

رابعا– ابن رشيق وقضية الإنتحال :

أما ابن رشيق فيشير إشارة سريعة إلى قضية الإنتحال عند حديثه عن السرقات ، ويستعمل مصطلح الإنتحال كابن سلام وسواه ، من حيث ما عرف من استلحاق شاعر لبيت من شاعر آخر، وما عرف عن الإنتحال حيث يذكر بيتين عرفا لجرير ، ثم يقول معلقا:" فان الرواة مجمعون على أن البيتين للمعلوط السعدي انتحلهما جرير" .

وخلاصة القول إن ابن سلام أول ناقد اهتم بقضية الإنتحال ، ودرسها دراسة جيدة مبنية على أسس نقدية صحيحة، مثبتا وجودها بالأدلة والبراهين، والنقاد الذين جاؤوا من بعدهإنما أكملوا ما بدأه ، ومنطلقهم في الدراسة ما وصل إليه ابن سلام .